

أزمة ثقافة.. ومثقفين

د . عباس الجراري .

ملخص المحاضرة التي القاها عباس الجراري بنادي النطاق الثقافي في مكناس بدعوة من فرع اتحاد الكتاب وجمعية البعث الثقافي وفي اطار موسمه المشترك لعام 1974 .

تعتبر الثقافة من حيث تركيبها ومكانه في المجتمع بنية فوقية له او هي احدى بنيانه الفوقية . وهي مع ذلك غير منفصلة عن البنيات التحتية التي تساهم بقوه وفعالية في تكوينها وتزويدها في اخصاب واغناء يطبعانها ويحددان ملامحها ، انطلاقا من تفاعل وتصاهر تنشأ عنهما علاقة جدلية تلقائية تربط الثقافة بمختلف البنيات المكونة لها ، وتولد فيها طاقسات وامكانيات وقدرات تستطيع بها ان تكون خلاقة وفعالة وفي ايجاب على الدوام . واذا كانت هذه السمات التي تحدد دور الثقافة ، فهي من قبيل ومن بعد تحدد طابعها المميز لها والذي يجعلها بنية نكاد ان تكون لا فوقية ولا تحتية ، فضلا عن ان تكون انعكاسا مباشرا لغيرها من البنيات. والثقافة — حتى وهي تكتسى هذه الملامح — لا يمكن فصلها عن المجتمع الذي يبادلها التأثير والتاثير بواقعه وما يعتمل في هذا الواقع من حركية وتجدد .

ولو نحن نظرنا الى مجتمعنا لكشف لنا واقعه عن انماط متداخلة ، وهي على تداخلها متباينة في اشكالها متنافرة فيما لها من معطيات اقتصادية واجتماعية بكل ما في هذه المعطيات من ابعاد تنسحب آثارها على مختلف ظواهر المجتمع ومظاهره .

وليس من شك في ان هذا التباين معزى الى الخط الذي سار فيه التطور الطبقي في المغرب ، وهو خط يبدو منحرفا وبعيدا عن الطبيعة والوضوح . وهذه حقيقة خلفت نوعا من عدم التماسك الاجتماعي لم يلبث ان انتج تحولا لصالح طبقة معينة .

من هذا المنظور في التحليل يمكننا ان نسجل ان واقع ثقافتنا يعاني من ظاهرتين :

الاولى : اجترار كثير من الترسبات التي تراكمت في فترات الانحطاط وعلى عهد الاستعمار ، والتي كان ممكنا — رغم تجذرها — ان تستاصل لو ان الذين قاموا على شؤون التعليم والثقافة غداة الاستقلال لم يستهينوا بها وعالجوها بجدية وموضوعية ، بعيدا عن التهريج الذي افضى في النهاية الى اضافة تراكمات اخرى زادت في تعميق موطن الداء ، وزادت بالتالي في ازمائه واستفحاله . وكان طبعيا ان تنتج هذه الظاهرة سيادة الفكر التقليدى — والجانب البالى والجامد منه خاصة — بكل ما في هذا الجانب من بعد عن العلم والعقل والحرية والابداع ، وبكل ما فيه كذلك من تزييف للقيم الوطنية والانسانية .

الثانية : وهى مترتبة على الاولى ، وتمثل في موقف ابناء جيل بل اجيال ما بعد الاستقلال من هذا الفكر ونكرهم له ورفضهم لاشكاليه ومضامينه . وهم في هذا او بعضه — على حق ، طالما ان هذا الفكر لا يسعهم في تطلعاتهم ولا يستجيب لما يعتمل في عقولهم وقلوبهم من دوافع وحوافز لمعايشة العصر والتفتح على المستقبل . وكان نتيجة لهذا الموقف ان اخذوا — بحثا عن البديل — يلتفتون الى شىء يصادفون ، وبدلوا يكتشفون الوانا فكرية كثيرة ، جذابة في اغلبها ، مغرية بالاقبال عليها بما تتضمن من مفاهيم ونظريات ومناهج ، وبما تفتح لهم من آفاق وبما تبعث في نفوسهم من نوازع التمرد على كل انواع النوصاية والتحكم . وهم في نشوتهم بذلك لا يلتفتون الى ما قد يكون فيها من دس وتحريف ونسليم او فرض الهيمنة في احسن تقديم ، بل هم عاجزون عن ادراك شىء من ذلك ، وهم ما زالوا في مراحل التكوين الاولى ، لم تتيسر لهم بعد وسائل مثل هذا الادراك . ولم يكن غريبا — والحال كذلك — ان تنشأ قوضى فكرية تمثلها اتجاهات كثيرة جديدة ، ولكنها غير واضحة ولا متبلورة حتى في لذهان اصحابها الاخذين بها في انحياز وحماس .

من هنا تصبح الحاجة ماسة الى فكر ينهض بدورين :
اولهما : توضيح هذا الوضع وتنظيره بموضوعية وعلمية .

والثانى : طرح بديل للفكر المزيف .

ويكاد الدور الثانى يستائر بكل الاهمية ، نظرا لان ظهور ثقافة جديدة — في المناخ الذى عرضنا — يصبح في غاية الضرورة والالاحاح ، ليس فقط لان هذه الثقافة ستكون بديلا ، ولكن لانها ستكون كذلك المحور الذى يمكن ان تاتف حوله الجماهير . واذا ما تسنى لها ذلك فانها ستتستطيع ان تلعب دورا ايجابيا في المجتمع لاستقطاب طبقاته والالتحام معها في بوتقة يمكن ان تساعد على طرح المشاكل واستيعابها عاطفيا وعلميا والبحث لها عن حلول .

واذا كان الامر من حيث مبدأ هذه الثقافة لا يثير اى شك ، ننه

من حيث ماهيتها يثير كل الخلاف . ويمكن حصر الآراء في هذه النقاط :

1 - التراثيون السلفيون وهم الذين يقتصرون على التراث العربي الاسلامى فى تعصب وتقديس .

2 - التراثيون الغربيون وهم يقتصرون على نوع آخر من التراث ، يتصبون له ويقدمونه ، سواء منهم من يدعو الى نقل الفكر الليبرالى او من يدعو الى تبني الفكر الماركسى .

3 - الرافضون لكل انواع التراث والداعون الى البدء من الصفر ، وموقفهم لا يقل سلبية عن الموقنين السالفين ، لانه يعنى الابداع الكلى وتصفية النفس تاريخيا وحضاريا ، ورفض الذات الوطنية والقومية والانسانية .

4 - الأتقائيون اى الذين يرون ضرورة خلق ثقافة وطنية بأخذ الجيد الايجابى من التراث العربى الاسلامى ومن كل الثقافات ، مع اعتبار اواقع والحاضر واتخاذها بعدا فى الانطلاق .

والحق ان الحديث عن هذه الآراء اصبح غير ذى جدوى بعد ان تكرر وطأ ، وبعد ان لاكنه الالسنه والاقلام ، واصبحت الدعوة الى ثقافته برطنيه امرا يكاد يلف حوله الاجماع ، وان شغل المنظرون لهذه الثقافة ببعض سلكياتها دون الخوض فى فحواها وتناولها فى العمق . وقد سبق لى ان بحثت فى موضوعها بشئ غير قليل من التفصيل ، حيث تناولت فى دراسات منشورة تركيبها الممكنة وخاصة من حيث الاستنفادة من نرائنا لحافظ على خصوصيتها واصالتنا الموضوعيه ، ومن حيث اقتباس مختلف مظاهر اننهضه انتقائيه والحضاريه دون الوقوع فى التبعية لهيمنتها ، وانتهيت الى انه لا بد لتقافتنا من ملامح تتيح لها التجدد والاستمراريه ، ونقتضى ان تكون :

1 - اصليه 2 - معاصرة 3 - واقعية 4 - انسانية
5 - ابداعية 6 - علميه 7 - عمليه 8 - جماهيرية
9 - مسؤولة 10 - حرة 11 - ثورية 12 - عقديه .

هذا جانب من الازمة ، اما الجانب الثانى فهو : من ينهض بهذه الثقافة ؟ والجواب يبدو بسيطا لا يستدعى طرح اسؤال ، على اعتبار ان المسمقين بحكم انتسابهم لها مهيبون لهذا الدور . ولكن الحقيقة ان هؤلاء المسمقين اصبحوا بواقعهم ومواقفهم يشكلون قضية اساسية من قضايا الواقع العربى ، لا شك انها تحتاج الى مناقشة وحل حتى لا تهدر طاقاتهم وحتى يكونوا ايجابيين .

وتتشعب هذه القضية الى جوانب متعددة : مادية ونفسية وفكرية وتنظيمية . اما الجانب المادى فيتمثل فى الوضع المزرى الذى يعيشونه بحكم انتماء معظمهم لاسرة التعليم ، وهى اسرة مقهورة ، سواء فى تأطير

الموظيفة العمومية او في اعتبار المجتمع الذي اصبح لا ينظر ولا يقوم الا من خلال مقاييس مادية صرف ، ثم بحكم لا مردودية العمل الذي يقدمون ، سواء في مجال البحث العلمي او الانتاج الابداعي او غيرها من مجالات النشاط الثقافي التي ما زالت تقوم في بلادنا على مجهودات الامسراد وتضحياتهم .

واما الجانب النفسي فيتجلى في ظاهرتين :

الاولاهما : الكبت الذي يشمر به المثقف ، وهو ليس دائما مفروضا عليه من الخارج ، بل هو في حالات كثيرة منبثق من ذاته ، اما بدافع مواضع معينة ، واما بتأثير من عقد ومركبات .

والثانية : عدم امكان المثقف تنفيذ افكاره وآرائه ومثله نتيجة حرمانه من ممارسة عملية التسيير او المشاركة فيها على الاقل .

هنا تطرح قضية جزئية ولكنها اساسية وصبغة في نفس الآن ، وتعلق بالوقوف من السلطة . ولعل الدارسين لم يلتفتوا له وظلوا مركزين على موقف السلطة من المثقف باعتبار فعاليته وتأثيره . ولا اريد ان اتيره هنا فقد سبق لي ان طرحته وناقشته في غير هذا المجال ، ويمكن القول بان موقف المثقف المغربي من السلطة يسير في الاتجاهات الاتية :

اولا : التبعية بالنسبة لعدد كبير ، منهم من يعمل بصدق واخلاص بحكم ازمائه الوطني ، ومنهم من يعمل لمجرد الرغبة في تحقيق مصالحه بانتهازية واستغلال .

ثانيا : القطيعة عند البعض ، وهو موقف سابي مدان حين يصدر عن ذوي الكفاية الذين يتخذونه لاختلاف في الرأي ، ويكاد يكون غير موجود . اما حين يصدر عن العاجزين الذين ليس لهم ما يشاركون به — كما هو الغالب — فهو مجرد تهريج وتوهم وتستتر لاختفاء النقص وعدم القدرة .

ثالثا : اللامبالاة ، وهو اكثر سلبية من السابق ان جاز اعتباره موقفا . وهو منتشر بكثرة في فئات معينة ، وخاصة بين اساتذة الجامعة الهأخوذون بالبحث العلمي ، وبين اصحاب المهن الحرة كالمحامين والاطباء ومن اليهم ممن غدوا — كالخبراء الاجانب — يعيشون لمهنتهم وما تدر عليهم من مال ، منفصلين عن الجماهير ومتحليلين من اي التزام .

رابعا : الانتقاد الموضوعي ، وهو موقف وطني وايجابي ، لا شك انه يساعد على التصحيح وعلى اغناء التجارب وعلى طرح المشاكل الحقيقية وايجاد الحلول لها ، وعلى تضيق الهوة الفاصلة بين الممارس والناقد وتقريب مواطن الالتقاء ، فضلا عن كونه ينم عن احساس بالمسؤولية والقدرة على تحملها ، ولكنها لا تصادفه الا عند قلة .

وينتج عن هذه المواقف في مجموعها ان الثقافة تحافظ حقا على استقلاليتها وتحمي من الذوبان والامتصاص ، ولكنها تنحصر في اطار

يبعدها - أو يكاد - عن المدار العام الذى تتحرك فيه دواليب الدولة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، مما يترتب عنه تقلص فى العمل الثقافى ، لا سيما فى المجالات التى لا يستطيع ان ينهض بها الافراد كالنشر عامة ، وفى نطاق التراث خاصة ، كما يترتب عنه تخلف عن امداد حركة النمو فى البلاد ، بل تخلف حتى عن مسايرتها . وهذا ما يحول دون حضور الثقافة الدائم فى الميدان ، ويجعلها تقتنع بدور التوعوية والتثوير على اصعدة محدودة ، ولا تؤثر بقوة فى مختلف قطاعات المجتمع ، فضلا عن ان يكون لها دور تغييرى فعال .

اذا وصلنا الى الجانب الفكرى الفينا الغموض والفوضى والسلبية واختلال المقاييس . فالغموض يعتل فى ذهن المثقف بدءا من تحديد مفهوم الثقافة ، وخاصة حين توصف بالوطنية والتقدمية والثورية ، الى تحديد مهمته فى مجتمعه وادراك ابعاد دوره ومسؤوليته . والفوضى ناتجة عن انتشار العديد من الافكار والمذاهب والفلسفات التى لم نستطع تمييز الفاسد منها والسليم ، وحتى لو استطعنا لها امكنا هضم ما نختار لاننا لا نتصرف بوعى تام . وهذه ظاهرة لا شك انها تبرز بوضوح وقوة ملامح التخلف الفكرى الذى نعانى منه . اما السلبية المتمثلة فى الرفض وفيما يسمى بالغربة والاغتراب والاستلاب - وهى الاخرى شاهدة على التخلف - فلا يمكن ان تعتبر فى مجتمع كالذى ننتمى اليه الا ظواهر مرضية لا تفضى بمن يعانونها الى غير الانفصال عن المجتمع ثم الى اليأس . واما اختلال المقاييس فينسجم تواجده مع بقية عناصر الازمة ، خاصة وقد اصبح من الصعب على اى واحد - نظرا لكثرة المشاكل وتراكبها وتعقيدها - ان يحدد موطن الداء ويحدد المسؤول عنه .

ويبقى الجانب التنظيمى بعد هذا ، ويكشف تحليله عن ظاهرتين خطيرتين : التمزق الفردى والجماعى ، وعدم الالتحام مع الجماهير . ولعلنا لا نحتاج الى كبير عناء لندرك ان بنية مئقنا الطبقية والفكرية والخلقية غير متجانسة . والح على جانب السلوك الخلقى الذى يكاد يكون منعديا . فمثل هذا السلوك هو الذى يجعل المثقف ينضم الى غيره ويعانق احلام مواطنيه حتى تتحقق له الزيادة وتتحقق له بهذه الزيادة مستقبلية اى مستقبلية افكاره ومثله . ويكفى ان نجلس الى بعض المنتسبين للثقافة فى لحظات معدودة على رصيف مقهى - وهو المكان الذى يقتل فيه كثير من المثقفين اوقاتهم للأسف - لنسمع الطعن فى الاخرين ، والرفاق والزملاء خاصة ، وتصنيفهم الى تقدميين ورجعيين وغير هذه وتلك من الاوصاف التى لم يعد لها اى مضمون ، ولنرى كيف يكون نقد هذا الانتاج او ذاك ، وكيف يتم اصدار الاحكام القاطعة عليه دون قراءته والاطلاع عليه ، ثم لنستمع بحديث هذا المثقف عن نفسه معتقدا انه نسيج وحده

وانه رائد التجديد وزعيم مدرسة في الفكر والادب . وتزيد هذه الانا تضخما
عدة اذا كان قد سبق له ان نشر .

والمثقفون عندنا مختلفون على عدر اصعدة :

— التكوين العلمى نوعا ودرجة .

— الانتساء الطبقي

— الاتجاه السياسى

— النظر الى الماضى

— تحاييل الواقع

— التنبؤ بالمستقبل

— تقدير الصالح العام

— المصالح الخاصة

ويبدو انه انطلاقا من النقطة الاخيرة تتحدد كل نقاط الاختلاف
الاخرى ، سواء ما ذكر ام لم يذكر . ونستطيع ان نميز في صفوف المثقفين
للثقافة هذه الفئات :

اولا : فئة الذين يقرأون ويكتبون ويعملون في صمت . وهؤلاء —
وفيهم شيوخ وشباب — ينفقون وقتهم وصحتهم ومالهم في سبيل خدمة
ثقافة امتهم ، ايمانا منهم بهذه الامة ومستقبلها . ثم انهم جبلوا على هذا
العمل فهم لا يتأخرون عنه ولا يتقاعسون ، على الرغم من العراقيل
والعقبات ، وعلى الرغم من المثبطات التى ايسطها ان احدا لم يعترف لهم .
ثانيا : فئة الاساتذة الجامعيين ، ومنهم :

1 — علماء يحملون اعلى المؤهلات ، بعضهم يعمل كمثقفى الفئة
الاولى في تضحية وصبر وصمت ، واغلبهم لا يعملون الا في حدود ضيقة ،
ويكاد انتاجهم يكون محصورا في تهء دراسات اكاديمية لا ترى النور
الا فى النادر .

2 — قوم ساقهم القدر الى الجامعة ، وهم غير مهينين لها ولما
تقتضيه من تكوين فكرى وبحث علمى ، فضلا عن المؤهلات . وقد انبج
لبعضهم ان يحصلوا على اعلى المراتب الجامعية بدون حق وعن طريق
الحظ الذى يستره ظروف المرحلة الانتقالية .

3 — شباب ييذاون او يبذل بعضهم جهودا صادقة ليكونوا في
مستوى المسؤولية الجامعية على الرغم من الظروف التى يعانون منها —
ماديا ومعنويا — والتى من شأنها ان تبعث في نفوسهم اليأس .

ثالثا : فئة الصحافيين ، ولست اعنى كل من يعمل في ميدان
الصحافة العظيم في قدره ومسؤوليته ، وانما اعنى من يشارك منهم في
مجال الادب والفكر . وعلى الرغم من انهم يفتنون هذا المجال بكتابات قد
لا تخلو من قيمة ، فان بعضهم بحكم تحزبهم وتصرفهم في صحيفة

ينصبون انفسهم زعماء لافكر والثقافة والادب ، يقولون ما يشاؤون ، وينشرون ما يروقهم ويتحدثون عما يعجبهم وعمن يوافقهم ، ويفتحون الباب للاخرين او يوصدونه حسب الهوى وميول النفس وتوافق المصالح او تضاربيها . والغالب على هؤلاء انهم لا يقرأون وان ثقافتهم مخطوفة بارتنجال ، وفي احسن الاحوال من جريدة او مجلة تأتي من هنا او هناك ، بالاضافة الى انهم لا رصيد لهم من مؤهلات الا في النادر وبالمصادفة . ثم هم في النهاية مرضى بالنجمية ومصابون بمركب الشهرة والعظمة .

رابعا : فئة الشباب ، وفيهم طلاب ومدرسون ، وهؤلاء يقرأون الاناج الحديث والمعاصر في الغالب ، ويتأثرون به ويتحمسون له ، ويروجونه فيما بينهم باندفاع ، وربما يحاولون تقليده . وقد يتغير اتجاه قراءتهم فيتغير تبعاً له اتجاه تفكيرهم الى حد التنقل بين المذاهب المختلفة وهم بهذا وبحكم حداثة سنهم وتجربتهم وانعدام التوجيه السليم ، سواء في مؤسسات التعليم او خارجها ، ثم بحكم قلة اتصالهم بالتراث العربي والانسانى ، يعيشون اكثر من غيرهم ازمة بليلة الفكر ويعانون اضطرابه وفوضاه .

نستخلص من هذا أننا — نحن المثقفين — بحاجة الى ان نقوم بنقد ذاتي حتى يمكننا ان نقوم بتحويل داخلي يلم صفوفنا في تكامل وتجانس ، وليتسنى لنا بعد ذلك ان نجرى عملية التحويل في المجتمع .

وتوحيد الصفوف لا يعنى الانصهار الكلى المطلق ، ولكن يعنى الاتفاق على حد ادنى من المقولات والمفاهيم والمواقف . وهو مطلب طالما طرحته بالحاح في اطار اتحاد الكتاب للخروج به من الازمات التى اعترضته ، والتى انتهت به الى الاختناق في طريق مسدود .

واذا كنا مشتتين غير قادرين على ان نلتحم مع انفسنا ، فانسى اتساءل بخجل : كيف يمكننا ان نلتحم مع الجماهير ؟ وكيف يمكن ان نكون منتجين وفعالين ؟

عباس الجرارى